التحديات التي تواجه ضمان جودة التعليم العالي في العالم وفي لبنان

رمزي سلامه
مندوب رئيس الجامعة لضمان الجودة
جامعة القديس يوسف

مؤتمر رابطة جامعات لبنان
نحو بناء منظومة وطنية متكاملة لضمان جودة التعليم العالي في لبنان

قصر اليونسكو – بيروت، الجمعة والسبت، 29 و 30 نيسان 2011

الرسالة 1

- لا شكّ أنّ علينا أن **نواجه تحدّيات كبيرة** قبل التوصّل إلى منظومة وطنية متكاملة لضمان جودة التعليم العالي.
- لكنّ عقد هذا المؤتمر الجامع وكثافة المشاركة فيه دليلان على **إرادتنا الصلبة** للتوصّل إلى هذه المنظومة.
- ولا يبدأ لبنان رحلة الألف ميل من الصفر. فقد **تراكمت لديه، على الصعيد الوطني، خبرات عديدة تجعل الانتقال إلى السرعة الثانية ممكنًا** في وقت قصير. ومن هذه الخبرات:
  - ما هو مترسّخ (عمل لجنة المعادلات منذ منتصف القرن الماضي)
  - وما هو حديث العهد نسبيًّا (اللجنة الفنية؛ التدقيق المؤسسي)
  - وما يجري في الوقت الحالي (التدقيق في الفروع الجغرافية للجامعات)
  - وكل ذلك يجري بالتعاون الوثيق بين الجهات الحكومية ومجتمع التعليم العالي

الرسالة 2

- كما أنّ بعض الجامعات اكتسب خبرة في التقييم الذاتي والتقييم الخارجي والاعتماد المؤسسي والبرامجي (ولو بشكل محدود)، فأصبح **لدى هذه الجامعات خبرات موثوقة في ضمان الجودة**
- وهناك **خبرات عالمية متنوّعة يمكن الاسترشاد بها**. وبيننا اليوم قيّمون على أهمّ هذه الخبرات من الدول المتقدّمة ومن بعض الدول العربية.
- **ولا يبقى علينا إلا التشمير عن سواعدنا** وحزم أمرنا والبدء منذ اليوم بمعالجة التحدّيات التي تنتظرنا لإرساء مقوّمات المنظومة التي نطمح إليها في وطننا ومؤسساتنا.

أربعة أنواع من التحدّيات

أولا – مفهوم الجودة

ثانيا – متطلّبات الجودة

ثالثا – تنوّع مشارب التعليم العالي في لبنان

رابعا – أوضاع مؤسسات التعليم العالي في لبنان

أولا – تحدّيات ذات علاقة بمفهوم الجودة

1. الجودة بمعنى الإتقان والتميّز
2. الجودة بمعنى المواءمة مع الغايات
3. الجودة بمعنى تأمين رضى المستفيدين وأصحاب الشأن
4. الجودة بمعنى استيفاء معايير الحدّ الأدنى
5. خلاصة

1. الجودة بمعنى الإتقان والتميّز (1)

الحكمة الشعبية تدعو إلى الجودة:

- عند العرب والمسلمين، حديث شريف يقول:

"من عمل منكم عملا فليتقنه"

- في الفرنسية قول مأثور:

"Une chose qui mérite d'être faite mérite d'être bien faite"

- يقابله في الانكليزية:

If a thing is worth doing, it is worth doing well"

1. الجودة بمعنى الإتقان والتميّز (2)

- الجودة = الإتقان = التميّز = التمايز
- عند العرب ما قبل الحداثة:
- الجودة = استيعاب أمهات الكتب في مجموعة من الفنون وإظهار نبوغ في الفهم والتحليل والتفسير
- الغاية من التعليم العالي: تكوين النخب
- المنحى العام: إنتقائي، إصطفائي، نخبوي

2. الجودة بمعنى المواءمة مع الغايات (1)

أ. الغايات الأكثر شيوعًا للتعليم العالي:

- إعداد الأئمة والدعاة
- إعداد النخب
- إعداد أصحاب الكفاءات (الأطر) العليا
- تعزيز التفكير العلمي وإنتاج المعرفة وتجديدها
- إعداد الإنسان المثقّف
- تأمين الحق بالتعليم العالي
- تكوين رأس مال بشريّ عالي الكفاءة لأكبر عدد ممكن من الملتحقين بالتعليم العالي

2. الجودة بمعنى المواءمة مع الغايات (2)

ب. تحدّيات ضمان الجودة في هذه المقاربة:

- استنباط معايير ومؤشّرات ومبيّنات موضوعية وموثوقة لربط العمليات بكل نوع من أنواع الغايات

ج. حسنات هذه المقاربة:

- معالجة الجودة وضمانها بصورة منهجية
- المرونة والتأقلم مع الغايات المتنوّعة

د. أوجه قصور هذه المقاربة:

- صعوبة تعميم معايير الجودة على الغايات السبع للتعليم العالي
- خطر التقوقع على النفس وإهمال الجوانب الخارجية للجودة
- إمكان قصور الغايات نفسها عن بلوغ معايير "التعليم العالي"

ه. من هنا، ضرورة تقييم مواءمة الغايات نفسها

3. الجودة بمعنى رضى المستفيدين وأصحاب الشأن (1)

أ. التحوّلات على صعيد الطلبة

- **الانتقال من تعليم النخب إلى التعليم الجماهيري**
- **التغيّر في ذهنيات الطلبة** وسلوكهم الاجتماعي والثقافات الجديدة الخاصة بالشباب

ب. تحولات على صعيد المؤسسات:

- **تنوّع مؤسسات التعليم العالي وازدياد التنوّع في ماهية التعليم العالي**
- **تنوّع تمويل مؤسسات التعليم العالي**

3. الجودة بمعنى رضى المستفيدين وأصحاب الشأن (2)

ج. تحولات على صعيد الحكومات:

- ازدياد الطلب على مساءلة مؤسسات التعليم العالي

د. تحولات على صعيد المجتمع:

- أعداد متزايدة من المثقّفين والجامعيّين
- انخفاض ثقة المجتمع بمؤسسات التعليم العالي

ه. النتيجة

ازدياد الضغوط لمساءلة مؤسسات التعليم العالي ودعوتها للخروج من "أبراجها العاجية"

- **ازدياد اهتمام الحكومات بعوائد الاستثمارات الحكومية** في التعليم العالي
- **ازدياد توقعات القطاعات الاقتصادية** للحصول على خرّيجين كفء من التعليم العالي
- **ازدياد اهتمام أولياء الطلبة بعوائد الالتحاق بالتعليم العالي**

و. تحدّيات رضى المستفيدين وأصحاب الشأن

- **تحدّيات الجودة:**
  - تحديد توقّعات المستفيدين وأصحاب الشأن ومطالبهم
  - المواءمة بين هذه التوقّعات والمعايير الأكاديمية
- **تحدّيات ضمان الجودة:**
  - انتقال الجهة الوازنة من داخل مؤسسات التعليم العالي إلى خارجها
- **حسنات هذه المقاربة:**
  - مواءمة التعليم العالي مع متطلّبات المجتمع
- **أوجه قصور هذه المقاربة:**
  - خطر محاباة المستفيدين على حساب الجودة الأكاديمية
  - خطر فقدان الاستقلالية المؤسسية وتدخّل القوى السياسية والاقتصادية وغيرها في الشؤون الأكاديمية

4. الجودة بمعنى استيفاء معايير الحدّ الأدنى (1)

أ. تشكّل **معايير الحدّ الأدنى:**

- **تسوية** بين المواءمة الداخلية مع غايات غير شفافة أو لا تصل إلى المستوى المطلوب، ورضى مستفيدين مشكوك بمستوى توقّعاتهم
- **ضمانة للسلطات الحكومية**
- **ضمانة للمجتمع**

4. الجودة بمعنى استيفاء معايير الحدّ الأدنى (2)

- **ج. حسنات هذه المقاربة:**
  - إمكان وضع معايير موضوعية وسهلة القياس
  - جعل كلّ التعليم العالي يتواءم مع المقوّمات الدنيا للجودة

4. الجودة بمعنى استيفاء معايير الحدّ الأدنى (3)

- **د. أوجه قصور هذه المقاربة:**
  - خطر التنميط وفقدان التمايز
  - خطر اكتفاء المؤسسات باستيفاء هذه المعايير وضمور الطموح إلى مستوى أعلى من الجودة
  - التوجّه نحو جودة المدخلات وإهمال جودة العمليات والمخرجات
  - عدم المرونة للتأقلم السريع مع المستجدّات
- **ه. التحقّق من الجودة:**
  - انتقال الاهتمام من ضمان الجودة إلى التدقيق وضبط الجودة، إن في المدخلات أو في المخرجات، مع اهتمام أقل بالعمليات

5. خلاصة: مناطق الجودة بناء على متغيّري وجهة النظر ومواءمة المعايير

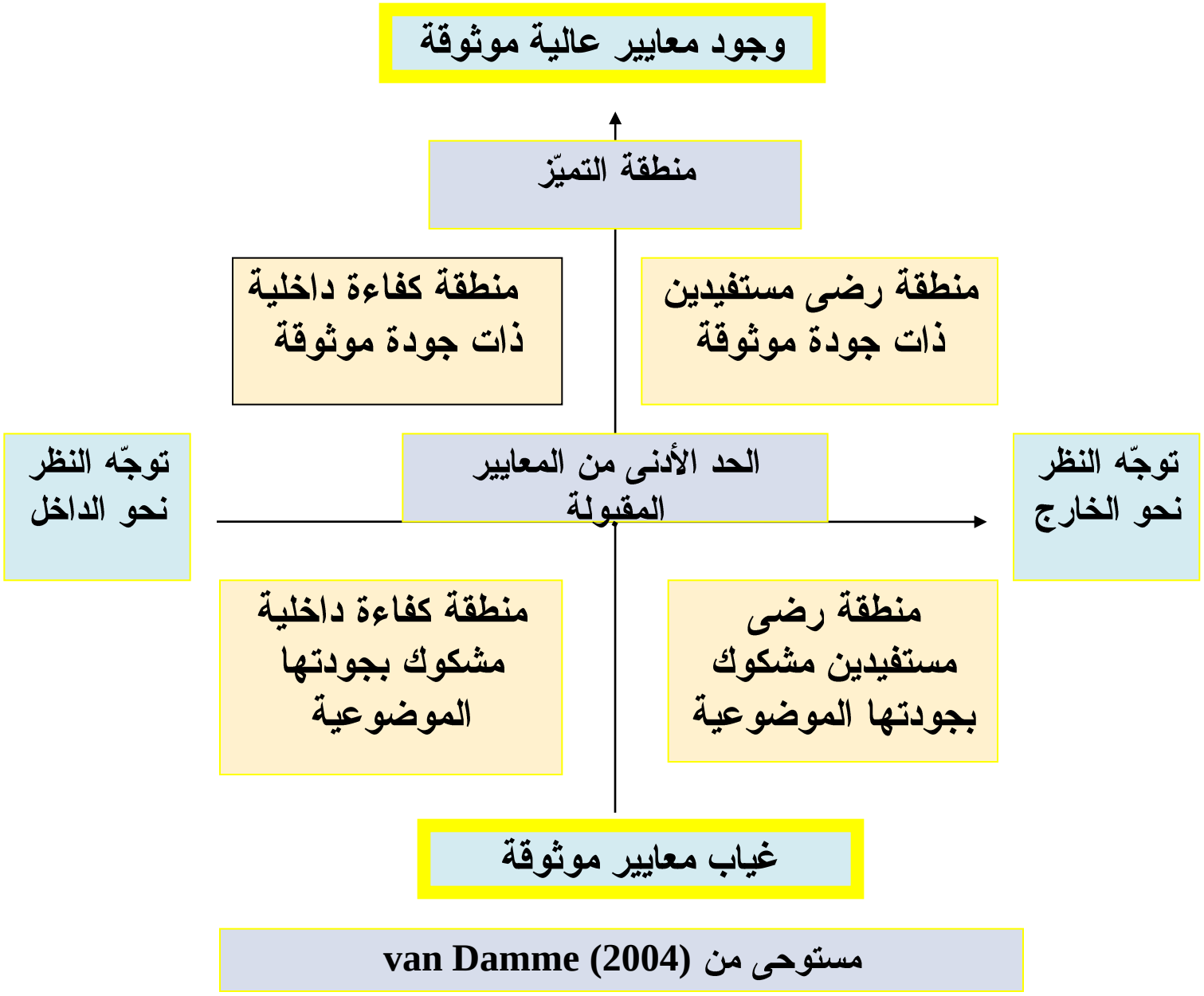

ثانيًا – تحدّيات ذات علاقة بمتطلّبات الجودة

1. إيجاد الأطر الناظمة للجودة ولضمان الجودة

- اعتماد أطر وطنية
- اعتماد سياسات مؤسّسية
- نضج الأطر الفكرية وتراكم الممارسات

2. تأمين المناخ الثقافي الملائم للجودة ولضمان الجودة

- ثقافة الجودة
- ثقافة المعلومات
- ثقافة الإنتاجية
- ثقافة المساءلة
- ثقافة الشفافية

3. تأمين البيئة الداعمة للجودة ولضمان الجودة

- **وجود قياديّين أكاديميّين وأعضاء هيئات تعليمية عالي الكفاءة وملتزمين قضايا الجودة**
- **وجود هيئات وطنية ووحدات مؤسسية** لضمان الجودة مزوّدة بموارد بشرية بالكمّية والنوعيّة اللازمتين
- **توافر المعلومات**
- **توافر الموارد البشرية الكفء**
- **توافر الموارد المالية** للقيام بعمليات ضمان الجودة وتحسين النوعية
- **استقلالية حقيقية لمؤسسات التعليم العالي** في ما يخصّ:
  - الشؤون الأكاديمية
  - الموازنة والشؤون المالية
  - إدارة الموارد البشرية

4. المواءمة مع العولمة والتحوّلات العلمية والتقانية

- التكيّف مع ظواهر العولمة
- استيعاب التحوّلات العلمية
- استيعاب التحوّلات التقانية

ثالثًا – تحدّيات ذات علاقة بتنوّع مشارب التعليم العالي في لبنان

أ. تنوّع مشارب التعليم العالي في لبنان

- **تعدّد نماذج المؤسسات والبرامج التعليمية:**
  - النموذج الأميركي
  - النموذج الفرنسي/الأوروبي
  - نموذج الجامعة اللبنانية
  - النموذج العربي
  - النماذج الهجينة
- **غياب إطار وطني موحّد لمؤهلات التعليم العالي**
- **الحراك المحدود للطلبة في ما بين المؤسسات**

ب. تحدّيات ضمان الجودة في ظلّ تنوّع مشارب التعليم العالي

- **تحدّيات معايير الجودة:**
  - صعوبة وضع معايير موحّدة تتلاءم مع المشارب المتنوّعة للتعليم العالي
- **تحدّيات التحقّق من الجودة:** أيّ من نماذج ضمان الجودة يصلح اعتماده؟
  - النموذج الأميركي للاعتماد المؤسسي والبرامجي؟
  - النموذج الفرنسي لتقييم المؤسسات والبرامج ووحدات البحث العلمي؟
  - النموذج البريطاني للعمل مع المؤسسات من خلال المعالم الدالة؟
  - النموذج الهولندي والالماني (والذي مورس أيضًا في كندا) لتقييم البرامج التعليمية دفعة واحدة في مختلف المؤسسات؟
  - النموذج الكندي للتدقيق في ما تقوم به المؤسسات لضمان جودة البرامج التي تقدّمها؟
- **تحدّيات الإطار الوطني للمؤهلات:**
  - بأي حال، لا بدّ من وضع إطار وطني لمؤهلات التعليم العالي يحدّد المقوّمات الدنيا للجودة وينطبق على مختلف مشارب هذا المستوى من التعليم

رابعا – تحدّيات ذات علاقة بأوضاع مؤسسات التعليم العالي في لبنان

1. دور السلطات الحكومية (1)

- **ما هي مسؤولية السلطات الحكومية تجاه جودة مؤسسات التعليم العالي الخاصة وبرامجها**، بينما لا تحصل هذه على أي مساعدة من المال العام، سوى في إطار المشاريع البحثية التي يموّلها مجلس البحوث العلمية؟
- هل يكتفى بضبط جودة المدخلات عند الترخيص وبالاعتراف بالشهادات بعد التخرّج؟
- أم أنّ للسلطات الحكومية مسؤوليات تتعدّى ذلك في ما يخصّ ضمان الجودة؟

1. دور السلطات الحكومية (2)

- ما هو دور السلطات الحكومية تجاه جودة الجامعة اللبنانية ومكوّناتها وبرامجها، وهي الممولّة شبه كلّيًّا من المال العام؟
- هل يكتفى بمنح ميزانية سنوية وبتعيين القياديّين الأكاديميّين وأعضاء هيئات التدريس؟
- أم أنّ للسلطات الحكومية مسؤوليات تتعدّى ذلك أو تختلف عن ذلك في ما يخصّ الجودة؟

2. تحدّيات الجودة في الجامعة اللبنانية

تعاني الجامعة اللبنانية في ما يخصّ الجودة ممّا يأتي (على الأقلّ):

- **الكثافة الطلابية** في كثير من الاختصاصات، من باب تأمين الحق بالتعليم
- **شحّ الموارد المالية**
- **محدوديّة الاستقلالية** تجاه السلطات الحكومية ومجموعات الضغط
- **عدم ملاءمة أوضاع الهيئة التعليمية** والمتطلّبات تجاههم مع متطلّبات جودة عالية
- **النقص في الموارد المادية والمعرفية**
- **غياب نظام مساءلة للجامعة ومكوّناتها والعاملين فيها**

3. تحدّيات ضمان الجودة في الجامعة اللبنانية

تعتري الشوائب الآتية الجامعة اللبنانية في ما يخصّ ضمان الجودة:

- **استثناء الجامعة من عمليات ضبط الجودة المعمول بها** في ما يخصّ الجامعات الخاصة:
  - الجامعة ومكوّناتها الأكاديمية وفروعها وبرامجها تنشأ وتعدّل بقرار مركزي من دون المرور باللجنة الفنية وبمجلس التعليم العالي
  - يعترف بشهادات الجامعة من دون المرور بلجنة المعادلات أو بامتحانات الكولوكيوم
- **ترسّخ ذهنيّة الاستثناء لدى أكاديميّي الجامعة**، من باب الحرص على الاستقلالية
- **القدرة المؤسّسية المحدودة على التحكّم بالجودة**

4. تحدّيات الجودة في الجامعات الخاصة

يعاني كثير من الجامعات الخاصة في ما يخصّ الجودة ممّا يأتي (على الأقل):

- **المستوى الأكاديمي المتدنّي للطلبة**، بغياب شروط وطنية موحّدة للقبول في مختلف التخصّصات وغياب برامج تعويضية وتأهيلية ملائمة للطلبة ضعاف الأداء
- **عدم كفاية مستوى أعضاء الهيئة التعليمية:**
  - شرط الحصول على الدكتوراه ليس معمّما
  - كثير من الدكتوراه ممنوح محليًّا ومن دون ضوابط الجودة المتعارف عليها عالميا
- **كثرة الأعباء التعليمية لأعضاء الهيئة التعليمية**
- **ندرة أنشطة البحث العلمي الداعم لجودة التعليم**، وتاليًا ندرة الذين يصلون إلى مرتبة الأستاذية بجدارة
- **ندرة أنشطة البحث والتطوير والاستثمار في الموارد البشرية**

5. تحدّيات ضمان الجودة في الجامعات الخاصة

- **ضعف البنى المؤسسية** الحاضنة للجودة ولضمان الجودة
- **قبول الانتقال** من عمليات ضبط الجودة التي تقوم بها أجهزة الوزارة حاليا (اللجنة الفنية عند الترخيص، ولجنة المعادلات عند الاعتراف بالشهادات) **إلى ضمان الجودة بمختلف متطلباته:**
  - **تعميم ثقافة الجودة** ومختلف الثقافات المساندة
  - **اعتماد السياسات الحاضنة للجودة**
  - **إنشاء الوحدات الداخلية لضمان الجودة**
  - **تخصيص الموارد البشرية والمالية اللازمة** لضمان الجودة وتحسين النوعية

شكرًا لاستماعكم

وشكرًا على جهودكم
لما فيه خير أبناء هذا الوطن ورفعة شأنه
والعمل على إرساء مكانة تعليمه العالي
في طليعة أنظمة التعليم العالي في العالم